

## التأثر والتأثير: (الكوميديا الإلهية وقصة المعراج)

تعد الكوميديا الإلهية للشاعر الإيطالي دانتي (1265 – 1312م) من الملاحم الدينية في التراث الإيطالي والعالمي وقد نالت على اهتمام النقاد على مر العصور وقد ساهمت شخصية دانتي، وبنية الملحمة فضلا عن عوامل البيئة والعصر التي اعطته هذه القيمة. ف «الكوميديا الإلهية» عمل أدبي تمتد أصوله الى الملحمة الشعرية التي عرفها اليونان ومن بعدهم الرومان ويتجسد ذلك في عناصرها الخيالية التي عرفناها في الملحمة وظفها دانتي وصاغها بطريقة جديدة ليلبسها من روح الشاعر العبقرى لتتحول نصا يعكس رؤيا الإنسانية في العالم الآخر على نحو مؤثر

ولما كانت هذه الملحمة الإلهية تتسم بالأصالة فان أي تأثر لكتابتها لا يقلل من قيمتها ان لم ينقلها من دائرة الادب القومي الايطالي الى الدائرة العالمية تأثرا ثم تأثيرا لأن الأصالة لا تعني انقطاع الأديب عن كل مؤثر يربطه ببيئته وعصره فالكاتب ينفرد بصياغة موضوعه على وفق رؤيته الإنسانية، فالخصائص التي تميز العبقرية الفردية قد تنماهى بالعصر لذلك جاءت أصالة الكوميديا الإلهية لدانتي لتعكس صورة دانتي الفردية مع صورة عصر دانتي بطريقة مكملة

وبالعودة لموضوع هذه الملحمة اشار عدد من الباحثين الى العلاقة بينها وبين عدد من الآثار الادبية العربية الاسلامية ومنها قصة الاسراء والمعراج والاثر الواضح لا يقلل من قيمة الكوميديا الإلهية وينقص من أصالتها نظير، وبرز من اثار الى ذلك المستشرق آسين بلا شيوخس .

لقد عاش دانتي فيالنصف الثاني من القرن الثالث عشر والرابع الأول من القرن الرابع عشر للميلاد، اي عصر النهضة اذ كانت الثقافة اللاتينية تعناش على الفكر اليوناني والفكر الإسلامي الذي كان في عصر ازدهاره (العصر الوسيط) اذ عاصر دانتي انبعاث الفكر اللاتيني اذ أفاد البرت الكبير(1280م) من شروح ابن سينا وابن رشد لأرسطو، وحاول استكمال فلسفته بمستكشفات علمية وآثر القديس توماس الإكويني(1274م) التوفيق بين الفلسفة والعقيدة المسيحية فنسخ على غرار ابن رشد( 1198م) في التوفيق بين الحكمة والشريعة وهناك حقيقة لا مرأى فيها اليوم، اذ كانت الحضارة الإسلامية والثقافة العربية مركزا فكريا في القرون الوسطى.

ومن مراكز الاتصال بين الفكر اللاتيني والفكر العربي صقلية والقسطنطينية والشام ولما كان العرب قادة الشعوب في ميادين التفكير والفنون مما اسهموا فيما بعد في انبعاث حركة النهضة وقد اشتهرت طليطلة في عهد الفونس الحكيم(1284م) ملك قشتالة بأنها أحد المراكز الثقافية التي تمت فيها ترجمة كثير من الآثار العربية إلى اللاتينية والاسبانية

فتقافة القرون الوسطى (القرن الثالث عشر) وهو عصر دانتي بالذات ثم القرن الرابع عشر لم تكن الثقافة السائدة فيه ثقافة لاتينية خالصة بل كانت ثقافة متداخلة من الفكر الإسلامي ومن الفكر اليوناني على يد المسلمين وبذلك يكون دلانتي اليبجيري واحدا من كبار مثقفي عصره الذين اطلعوا على ثقافة متنوعة غنية الموارد وقد كانت دراسته الدينية العميقة، وقدأخذ بتعاليم القديس توماس الأكويني و تعلم الفرنسية، ولغة البروفانس التي تحتوي أناشيد التروبادور، ثم اطلع على كل ما أتيح له من ألوان الثقافة التي تحتوها اللاتينية والفرنسية بالإضافة إلى دراساته الجامعية.

ولما كانت ثقافته واسعة ومتنوعة لم يكن غريبا عن الثقافة الإسلامية جنب الثقافة إلى اللاتينية والفرنسية، ومعرفته بكتب وأقاصيص وأناشيد فضلا عن العلوم الكبرى كالطب والفلك والحكمة والكلام وآراء الصوفية، وما شاع بين الناس من قصص ديني تحتل قصة المعراج النبوي مكان الصدارة، ومن النتائج التي توصل إليها المستشرقون في تأثر دانتي بقصة الاسراء :

- صلة دانتي بالثقافة الإسلامية ( المستشرق كابريلي)بحث نشره في كتاب سنة 1952 يوضح مدى تلك الضجة التي كان قد أثارها المستشرق الإسباني آسين بلاشيوس في كتابه « الأصول الإسلامية للكوميديا الإلهية» (1919م) التي كان مبعثها أن هذا الباحث الكبير انتهى إلى أن دانتي في الكوميديا يستقي صورته وتصميمه للعالم الآخر فيها من مشاهد العالم الآخر كما تصورها قصة المعراج وكتب الدين الإسلامي، ولما كان هذا الفرض مجرد احتمال يحتاج إلى الكشف عن واسطة الاتصال التي تقطع بصلة دانتي بهذا الأثر أو ما يتصل به، فقد ظل فرض بلاشيوس مجرد احتمال، وقد أصبح حقيقة أدبية وعلمية فيما بعد بفضل بحوث أخرى قام بها عالمان آخران توصلا فيها إلى اكتشاف الترجمتين اللتين كانتا معروفتين في كل من اسبانيا وايطاليا في القرن الرابع عشر لقصة الإسراء والمعراج الإسلامية

قام بهذا البحث المستشرق الايطالي تشيرولي، ونشره في كتاب سنة 1949 تحت عنوان « كتاب المعراج »ومسألة المصادر العربية للكوميديا الإلهية

وقد انتهى بحث تشيرولي إلى أن ترجمة قصة المعراج الإسلامية كانت متداولة في القرن الثالث عشر، وكان لها تأثيرها في أوساط القراء والأدباء ورجال الكنيسة في كل من ايطاليا وفرنسا واسبانيا، وان دانتي بوصفه من كبار مثقفي عصره كان مطلعاً على هذه القصة

تأتي الكوميديا الإلهية في صياغتها الفنية لتقطع بشكل لا يبقى فيه مجال للشك بصلة هذا الأثر الأدبي الإيطالي الكبير بقصة الإسراء والمعراج الإسلامية في تصميمها للعالم الآخر وكثير من مشاهدتها وصورها للعالم الأخرى في الفردوس والجحيم

وإننا لا نذهب إلى القول أن قصة المعراج كانت المصدر الوحيد للكوميديا الإلهية، ولا أن مشاهد العالم الآخر في كتبنا الدينية كانت الغداء الوحيد لخيال الشاعر دانتي وهو ينشئ ملحمته الخالدة، ولكننا نقول بناء على ما

ثبت من نتائج البحث وما كان للثقافة الإسلامية من دور في القرون الوسطى أم مشاهد العالم الآخر في قصة المعراج وتصميمها للعالم الآخر من ناحية ثانية كانتا مؤثرين على نحو قوي في خيال الشاعر. ولقد كانت هناك آداب كثيرة عرفت هذا النوع من الرحلات الخيالية إلى العالم الآخر. فقد عرف ذلك المصريون والبابليون وعرف الفرس في أديهم مشاهد للعالم الآخر تتألف من عوالم ثلاثة الجحيم والمطهر والفردوس وفي تراث الهند نجد صورا شبيهة بهذه الصور المعروفة في الديانات الأخرى وكيف يصعد هيرا من الجحيم إلى الفردوس محفوا بالملائكة إلى مقام رب الأرباب وفي الأدب اللاتيني واليوناني مشاهد غنية الألوان والتفاصيل عن العالم الآخر. وفي تراث القرون الوسطى قديسون وقصاصون تحدثوا عن العالم الآخر

إلا أن قصة المعراج كانت أبلغ تأثيرا مما عداها، ربما كان ذلك سبب التطور الكبير الذي بلغته من روعة الخيال والشعر على يد الوصفي الكبير محيي الدين بن عربي (560 - 638م) في كتابه الفتوحات المكية وهو الأمر الذي وقف عنده المستشرق بلاشيوست طويلا في معرض الموازنة بين تصوره للعالم الآخر وتصور دانتي والواقع أن هذا المستشرق في كتابه « الأصول الإسلامية للكوميديا الإلهية » قد ذهب في المقارنة بين هذه الملحمة في تصويرها وتصميمها للعالم الآخر وفي قصة المعراج غاية بعيدة، وعلى الرغم من أننا لا نقطع برأي في أن قصة الإسراء والمعراج هي التي أوحى إلى دانتي بفكرة الكوميديا الإلهية لعدة أسباب منها أن الثقافة الإسلامية لم تنفرد وحدها بهذا النوع من القصص ذات الرؤى في العالم الآخر، ومنها كون دانتي كان متأثرا أيضا بفرجيل الشاعر الكبير صاحب الرؤى الأخرى في ملحمة الإلياذة، إلا أننا نقر معه بأن دانتي استأثر بخياله تصوير الصوفية المسلمين لقصة المعراج لا سيما عند ابن عربي في كتابه « الفتوحات » ولا شك أن قصة المعراج التي كانت من حظ الترجمة إلى اللاتينية والفرنسية تحتوي التفاصيل التي انتهت إليها في القرون الوسطى على الرغم من كوننا نجهل نص هذه القصة بالذات

وللمقارنة بين الكوميديا الإلهية وقصة المعراج لابد من النظر فيقضية التشابه الاختلاف أما في الناحية الأولى فنجد التصميم الكيفي للعالم الآخر يخضع للشكل الدائري فالعالم الآخر على هيئة قبة الفلك وهو نفس التصميم الذي نجده عند دانتي، وفي قصة المعراج كما يصورها ابن عربي فأطباق الجحيم ومساري النجوم ودوائر الوردية الصوفية وجماعات الملائكة التي تحف بمطلع النور الإلهي والدوائر الثلاث التي ترمز إلى الثالوث عند دانتي ويتأثر دانتي بصورة النظام الفلكي التي كانت معروفة في القرون الوسطى، وهو الذي يجعل الأرض مركز العالم وحولها السماوات التسع عبارة عن كرات تحيط بها أو دوائر فضائية تغلف الأرض، وتزيد التعاليم المسيحية هذا النظام سماء أعلى هي الوردية البيضاء أي عرض الله وهذا يجعل جحيمه تسع حلقات متدنية أسفل فأسفل حتى تنتهي إلى المطهر وهو مركز الأرض وهو مقسم بحكم ضرورة مماثلته لما قبله إلى تسعة أفريز ومنه ينطلق إلى السماء حيث تتعالى تسع سماوات تنتهي بسماء السماوات وهي المستوى العاشر ونجد ما يشبه هذا التقسيم للعالم الآخر في قصة المعراج في صورتها المتأخرة ففيها أن عدد المعارج كانت ليلة

الإسراء عشرة، سبع سماوات. والثامن هو سدرة المنتهى والتاسع المستوى الذي سمع فيه الرسول صرير الأقاليم في تصاريح الأقدار، والعاشر و العرش والرفرف حيث تمت الرؤية وسماع الخطاب والكشف الحقيقي أما بداية الرحلة في الكوميديا فتأتي في أعقاب نوم عميق، وتنطلق من بيت المقدس، ومن موقعه ينزل دانتي إلى دركات الجحيم التسع حتى الدرك الأسفل حيث إبليس، وفي المعراج أيضا يبدأ العروج إلى السماء بعد الصلاة في البيت المقدس مع جماعة الأنبياء، وتأتي صلاة الرسول بعد نومه في بيت أم هانئ بنت أبي طالب، وبينما يرافق الرسول عليه السلام جبريل ملك الوحي يرافق دانتي فرجيل الشاعر رمز الإلهام الشعري ويعترض سبيل الرسول في رحلته في قصة المعراج كائنات رمزية هي في رواية المرأة العجوز رمز الدنيا، والشيخ رمز الشيطان وفي رواية أخرى المرأة العارية رمز الإغراء الشيطاني، وفي رواية ثالثة عفريت من الجن يطلبه بشعلة من نار، أما دانتي فيعترضه هو أيضا كائنات رمزية هي الذئبة رمز البخل والأسد رمز الكبرياء، والفهد رمز الشهوة

وأقسام العالم الآخر عند دانتي تبدأ «باليوليو» وهو مدخل الجحيم ومقر العظماء الذين سبقوا المسيحية أو لم يهتدوا إلى نورها، ثم الجحيم ذو الدركات التسع ثم المطهر وهو ممر ضروري من الجحيم إلى الفردوس، ثم الفردوس حيث تتعالى تسع سماوات كل سماء مستوى من مستويات الفردوس أما تصوير النصوص الدينية الإسلامية للعالم الآخر فهناك الجنة ذات الفراديس الثمانية وهي دار السلام وجنة النعيم وجنة المأوى ودار الخلد وجنة عدن وجنة الفردوس وجنة عليين ودار المزيد، وفي الحديث الذي أخرجه الطبراني عن ابن مسعود أن للجنة ثمانية أبواب سبعة منها مغلقة وباب مفتوح للتوبة وهي باب الجنة الأولى، وينتقل المنتقل إلى الجنة من أسفل إلى أعلى دوما. وهناك النار ذات الدركات السبع. وهناك الصراط المضروب بين ظهري جهنم، وهو يفضي إلى الجنة وهناك تل بين الجنة والنار هي الأعراف مقر خاص للذين لم يستحقوا عذاب الجحيم ولا نعيم الفردوس

وعند المقارنة نجد أن الجنة تقابل الفردوس وأن الصراط يقابل المطهر، وأن جهنم تقابل الجحيم وأن الأعراف تقابل الليميو مقر العظماء والعباقرة الأقدمين وبعد ذلك تتعاقب المشاهد في كل من القصة الإسلامية والملحمة الذاتية مشاهد العذاب و مشاهد النعيم فتتقارب تارة حتى تتماثل تقريبا وتختلف أخرى. وفي هذا الصدد يقول أنخل بالنثيا

ولا يقتصر التشابه على الخطوط العامة فحسب بل شمل بعض التفاصيل فالنسر الضخم الذي رآه دانتي في سماء جوبتر وقال إنه يتكون من حشد عظيم يضم آلاف من الملائكة لهم أجنحة ووجوه فحسب، يشع منها نور باهر وهي تخفق بأجنحتها مرتلة أنغام الترتيلات الانجليزية ثم يسكن يقابل الديك الذي رآه الرسول (ص) يخفق بجناحيه ويغني ترتيلات دينية، ثم يحط يعد قليل مع ملائكة تبدو له وكأن كلا منها مجموع لا عدد له من الوجوه وكلا الدليلين إذا وصل بزائره إلى سماوات النجوم دعاه إلى تأمل الكون المخلوق وصغره. وصفة المشهد

الإلهي في كلا الحالين واحدة، فإله مركز أو نقطة من النور الباهر تحيط به تسع دوائر ذات مركز واحد، وتتألف هذه الدوائر من الملائكة محشودين ببعضهم إلى بعض في صفوف تنبعث منها أشعة من النور..والزائر يتأمل هذا المشهد الأروع مرة عندما ينتهي من صعوده ومرة عندما يمثل بين يدي العرش ومثل هذا التماثل في التصوير نجده في مشاهد الجحيم، وبشكل يكاد يكون قاطعا بين دانتي استمد من قصة المعراج في ملحمته، فالعواطف السود ومطر النار والحركة الدائرية الدائمة لقوم والطعن بدون موت وسحب المعذبين وأمعائهم متدلّية والقوم مقطوعو الأيدي، وعذاب الزمهرير كل ذلك متمثل في الأثرين مع اختلاف اقتضته طبيعة الخلاف بين الشخصين.

أما الاختلاف بين الكوميديا الإلهية وقصة المعراج الإسلامية فهي :

الدقة والأحكام في التقسيم والتفصيل في الكوميديا لأنها من وضع شاعر مجنح الخيال أفرغ كل عبقريته في صياغة هذه الملحمة صياغة هندسية تخضع لضرورات التماثل والتوازي بين أجزائها وفصولها والتنوع في مشاهداتها، في حين أن قصة المعراج لم تكن إلا حديثا نبويا عن رؤيا الرسول عليه السلام تطورت فيما بعد على يد الوعاظ والصوفية إلى قصة ذات صور ومشاهد في وضع غير منسق وإن كان لا يخلو من روعة التصوير. إن الكوميديا الإلهية بناء شامخ الذري منسق البنين متكامل الأجزاء قائم على نوع من الهندسة الشعرية القوية التي هي أخص الجوانب في عبقرية دانتي

وتختلف قصة المعراج أيضا في تصميمها للعالم الآخر عن الكوميديا الإلهية لان الأولى وإن كانت تخضع للعالم الآخر لقانون الزمان والمكان ولكنها لا تعطيه هذا الشكل المنادي الصلب. فهي لا تصف لك المعالم وصفا دقيقا، وإنما هي ومضات تشرق بعتة على مشاهد تتلاحق أمام مخيلتك بدون أن تترك في نفسك سوى الأطياف، بخلاف الكوميديا التي تسرف في التصوير والتحديد والتلوين والتأنيث، وتعقيب المشاهد في نظام وترتيب، وتكاد تبلور المضمون الميتولوجي للثقافة الإنسانية كله. وعندما يعطي دانتي لوصف الجحيم ثلاثة وثلاثين نشيدا تستغرق أربعة آلاف وسبعمائة سطر إذا بقصة المعراج لا تكاد تبلغ في وصف مشاهد العذاب الصفحتين. ويتصل بهذه الهندسة الشعرية التصميم الفني لكل من الكوميديا وقصة المعراج، فالكوميديا كما قلت بناء متكامل ذو تفاصيل وأجزاء ومشاهد تستغرق مائة نشيد وهو العدد الرمزي للوحدة واللانهاية، تستوعب ثلاثة وثلاثين ومائتين وأربعة عشر آلاف سطر تستنفذ أكبر طاقة ممكنة لأي إنسان من الخيال وقوة التصوير، أما قصة المعراج فهي بعيدة كل البعد عن صناعة الشعر وبعيدة أيضا عن هذه الهندسة الشعرية وناحية ثالثة في تصميم الكوميديا وقصة المعراج للعالم الآخر لا ينبغي ألا يفوتنا ذكرها وهي أن هذا التصميم في كلا الأثرين تصميم رمزي، فالعالم الآخر إن هو إلا صراط نحو الخلاص، خلاص الإنسانية من البؤس في

الحياة الدنيا، وتقول عنه قصة المعراج في مدلولها عند الحياة الدنيا، عند الوصفية أنه تحقق الرسول عليه السلام مما امره الله بتبليغه تحققاً عياناً ليجمع بين الإيمان واليقين. ومع ذلك فالمغزى في قصتنا الإسلامية أكثر ورعة لأنه يعني تحقق الإنسان الكامل من حقيقته أي صيرورة الإيمان عنده معرفة والمعرفة يقينا وهناك أمر آخر تنفرد به الكوميديا في تصميمها للعالم الآخر وهو تأثرها بالتعاليم المسيحية المبتدعة، فالتصميم الأخرى في الكوميديا يخضع لعقيدة التخليل المسيحي فالأقسام في العالم الأخرى ثلاثة والأقاليم في الذات الإلهية ثلاثة، وتحديد نور الله بأنه نقلة مركزية تنداح حولها هالات النور كل ذلك تخلو منه قصة المعراج لأنها لا تتقيد بالأشكال التجسيمية إلا بقدر ما يقتضيه مقام التعبير بالمقيد المطلقاً